العلوم النقلية عند يهود المغرب الأوسط خلال العصر الزياني

.عبد الصمد حمزة،
جامعة يحي فارس بالمدية.

الملخص:
شهد العصر الزياني نقلة نوعية في الميدان العلمي، فظهر خلال هذه الفترة عدة علماء أثروا بمؤلفاتهم الساحة العلمية، وقد كان أغلب علماء تلك الفترة مسلمين، إلا أن هذا لم يمنع من وجود طبقة مثقفة من أهل الذمة خاصة اليهود، الذين كان احتكاكهم بالمسلمين عاملا على حرصهم الشديد على إتقان شتى العلوم والتفوق فيها، إضافة إلى أن تعاليمهم تحثهم على التعلم والأخذ بأسباب الثقافة، ومع تواصل الهجرات من البلاد الأندلسية التي كانت حروب الاسترداد المسيحي فيها على أشدها وتضطر كثيرا من اليهود للهجرة إلى بلاد المغرب التي وجدوا فيها الملاذ الآمن والأرض المناسبة لتطوير معارفهم، خاصة إذا عرفنا أن كثيرا من العلماء والربابنة اليهود قد كانوا على رأس هذه الهجرات، وهم الذين شكلوا في العهد الزياني الطبقة اليهودية المثقفة والتي اهتمت أكثر بالعلوم النقلية ولا سيما ما تعلق منها بشروح الكتب المقدسة لديهم، إذ انتهج فيها اليهود طريقة علماء المسلمين الذين اتخذوا القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة أساسا في التفسير والاستشهاد واستنباط الأحكام الشرعية، فاعتبر علماء الشريعة اليهودية التوراة والتلمود نصوصا أساسية، هي مدار تشريعاتهم وأحكامهم، وحاولوا في هذا العصر رد الطوائف اليهودية إلى الاحتكام الكلي للنصوص المقدسة، بعد أن رأوا ابتعادا منهم عن هذا الطريق.

الكلمات المفتاحية: أهل الذمة- اليهود- العلوم النقلية- التوراة- التلمود

Abstract:
The Zianid Period witnessed a qualitative move in the scientific field, during which, there appeared numerous scientists who enriched that field with their books. Although most of them were Muslims, this didn’t prevent the emergence of a literate class from the Jews whose contact with Muslims motivated them to do well in various sciences. Besides to that, their teachings induced them to learn more and be cultured. In fact, with the persistence of migration from Andalusia, which was witnessing wars of Christian recouping, they were obliged to migrate towards the Maghreb land. At that time, it was a safe land that encouraged them to develop their knowledge, especially if we knew that many

scientists and Jewish masters were on those migrations. They constituted, in the Zianid period, the cultured Jewish class which was mostly interested on transmitted sciences focusing on explaining the sacred books they had. They followed Muslim scientists method, who used Quran and Sunna to explain, cite and derive the legal verdicts. Jewish scientists considered the Torah an Talmud main texts and the pivot of their verdicts and legislations. They also tried to bring back the Jewish groves to depend totally on sacred texts when making their verdicts as they remarked their disinclination from that way.

Key words: Dhemmis-Jews- transmitted sciences-Torah-Telmud

العلوم النقلية عند اليهود هي التي تستند إلى مصدر ديني وتهتم بدراسة الكتب الدينية، كالتوراة والتلمود وكل ما له صلة بها، ويمكن تسميتها كذلك بالعلوم الشرعية، إذ نحا فيها المؤلفون اليهود طريق العلماء المسلمين في اتخاذ القرآن الكريم والحديث الشريف أساسا في الاستشهاد والتفسير، فاتخذوا التوراة والتلمود لخدمة العلوم الدينية، وفي ذلك يقول عالمهم ابن جناح (وهو أبو الوليد مروان بن جناح، ويُسمّى بالعبرية "الحاخام يوحنا". ويسمّيه النصارى "يونا" أو مرينوس (MERINOS)، وقد ولد في قرطبة سنة (380ه/990م)، وعاش في بيئتها العلمية المزدهرة ثم تركها سنة (403هـ/1012م) بسبب الفتن التي أعقبت سقوط الخلافة، واستقرّ في أليسانة، ثمّ انتهى به المطاف في سرقسطة، فأقام فيها بقية حياته، وكتب فيها مؤلفاته في اللغة والنحو، ومات عام (447هـ/1055م)((Dubnov, S.1968:2/635-636./ Ashtor, E. 1984: 3/12-13.: "وأنا مزمع أن أستشهد على شرح بعض الأصول بما أمكنني من الموجود في التوراة، وما لم أجد عليه شاهدا من التوراة استشهدت عليه بما حضرني من التلمود"(هنداوي، إ. 1963: 28).

وسنتناول في هذا الموضوع قسمين من العلوم النقلية وهما التشريع والأدب.

1- التشريع اليهودي:

تعددت مدارس التفسير لدى اليهود وتنوعت مناهجهم، فنشطت الدراسات التفسيرية في بلاد المغرب اعتمادا على ما كتبه الأولون منهم سواء في المشرق أو المغرب وخاصة علماء اليهود الأندلسيين الذين تضلعوا في الفقه والتشريع وحازوا قصب السبق في تفسير المسائل الشرعية واستنباط أحكامها، لكن هذا الوضع لم يستمر طويلا في بلاد المغرب إذ شهدت الحركة العلمية ركودا مصاحبا للركود الثقافي الذي شهده العالم الإسلامي بعد الموحدين، لكن فيما يخص علوم الفقه والتشريع وبسبب

الهجرة اليهودية من الأندلس وقدوم أحبار اليهود البارزين عرفت حركة التفسير نوعا من الانطلاق والتجديد تزعمها المهجرون أي "الميغوراشيم".
دأب أحبار اليهود على تجديد كل ما له صلة بالتشريع لمواكبة المستجدات والنوازل التي ازدادت توسعا مع اختلاط أجناس جديدة وأعراق، وتطور المجتمعات التي كان يساكنها اليهود في كل مرة. ولعل أبرز ما أُلف في هذا الشأن من قبل يهود الدولة الزيانية هو تلك القوانين الفقهية وذلك محاولة منهم توحيد التشريعات التي أصبحت مثار جدل بين الطوائف اليهودية، ومحل سخط لأنها باتت تهدد وحدتهم، وتماسك تشريعاتهم، ومن أهم المؤلفات نذكر:

أ.تكانوت أو تقانوت الجزائر(Takanoth):

ومفردها "تقنة" ومعناه النوازل الفقهية وتعرف كذلك بالحلخة أو الهلاخا (Halakha) ومعناها التشريع (الزعفراني، ح. 2000: 262/1-263)،وهو نظام قانوني ديني من اثنتي عشرة مادة، وتولى كتابته وتحريره كل من الربيين إسحاق بن شيشيت برفات وشمعون بن سماح دوران في سنة 797ه/1394م بمدينة الجزائر، وذلك لإعادة اليهود لاستعمال القوانين المستمدة من التوراة والتلمود عوض التحاكم إلى القوانين الإسلامية التي كانت هي الفيصل آنذاك في تعاملات اليهود خاصة إذا تعلق الأمر بالزواج وقوانين الأسرة.
ويقول الربي شمعون بن سماح دوران عن سبب وضعهم لهذه القوانين:" عندما وصلنا إلى هذا البلد لم نجد به عادة خاصة، كما أن أعضاء الجماعة لم يتقيدوا فيما يخص أحوالهم الشخصية بالقانون الحاخامي بل كانوا يتبعون أحكام المسلمين، ومعظم اليهود الذين هاجروا إلى هذا البلد كانوا من ميورقة وحافظوا على عاداتهم وهي نفس عادات اليهود في الدول المسيحية، أما نحن فلم نجد عادة تتطابق مع قوانيننا، كما أن ثروات الجماعة بدأت تتناقص، وإن استمر الوضع على هذا الحال سيجد اليتامى أنفسهم في وضع خطير يكون سبب إفلاسهم، كما أن الأرامل كن يعشن مما تركه أزواجهن، ولهذه الأسباب وضعنا قانونا"(Haezer, E. 1869 :182).
وقد تناولت هذه المواد ما يلي:
المادة الأولى: المبلغ الذي يدفعه الزوج لزوجته (في حالة الطلاق) إضافة إلى مبلغ الصداق المحدد في الكتوباه بالنسبة للمرأة البكر أو الأرملة أو

المطلقة، واحتفاظ الزوجة بالهدايا التي حملتها من بيت أهلها أثناء حفل الزواج.

المادة الثانية: حالة التطليق دون رضى الزوجة، وحالات عدم دفع الإضافة السابقة من طرف الزوج وهي زنى الزوجة أو الطلاق بالتراضي. ودفع الزوج نفقة رضاعة ابنه وتعويض ما جاءت به المرأة من بيت أهلها في حالة إتلافه.

المادة الثالثة: ورثة الزوجة المتوفية إن كان لها أولاد، وإنفاذ وصية الزوجة بأن يرث زوجها كل قيمة الندونيا لأنه هو الوريث الشرعي حسب التشريع التلمودي.

المادة الرابعة: تقسيم ميراث الزوجة التي لم تترك أطفالا بين أقرب أقربائها (1/3) وللزوج (2/3 والصداق) إن نصت الوصية على ذلك.

المادة الخامسة: حق الأرملة في المطالبة بقيمة الندونيا(الندونيا: وهو ما يقدمه والد الفتاة من مال أو متاع لابنته عند زواجها، ولم تكن موجودة في العصور القديمة لكنها أصبحت ثابتة بعد السبي البابلي، فكانت تثبت قيمة "الندونيا" في عقد الزواج)،(يوسف، س. 2005: 82).

المادة السادسة: العادة السائدة والتي كانت تكتب في العقد أن الزوج منح هبة لا أثر لها، والزوجة المطلقة أو الأرملة ليس لها الحق فيها.

المادة السابعة: حق الزوجة في النفقة في الأشهر الثلاثة الأولى من وفاة زوجها، وسقوط هذا الحق في حالة مطالبتها بمؤخر الصداق، وأخذ نصيبها بعد انتهاء العدة.

المادة الثامنة: عرض المتعاقدين مشاكلهم على المحكمة الحاخامية ومنع اللجوء إلى محكمة غريبة.

المادة التاسعة: اعتبار هذه المواد قوانينا غير قابلة للتعديل إلا بعد مرور عشرين عاما.

المادة العاشرة: حق الزوجين في إضافة بعض ما تم الاتفاق عليه بينهما إلى المواد السابقة الذكر.

المادة الحادية عشرة: خضوع عقود الزواج السابقة لهذا القانون، لقانون المنطقة التي تم فيها إبرام عقد الزواج.

المادة الثانية عشرة: هذا القانون المفصل مفروض على طائفتنا، وكل مخترق له يكون عقابه قرار اللعنة (الحرمان).

ثم يقول في آخر هذا القانون:

وقد حررنا هذه المواد بموافقة رؤساء الطوائف، وحسب مجلس الحاخامات، وقد أعلن عنها بالبيعة في يوم السبت قبل إخراج لفائف التوراة حتى لا يجهلها أي شخص.

وقعنا عليها بمدينة الجزائر 2 من شهر أيلول 5154 من خلق العالم، الموافق (797ه/1394م)(بوعمامة، ف. 2011:130- 133).

والملاحظ على هذه القوانين أنها اهتمت فقط بالأحوال الشخصية وبالأخص بأمور الصداق والندونيا والنفقة والميراث، أي ما يتعلق أكثر بالزواج، التي كان يسود فيها اختلاف كثير بين اليهود ولا يجدون حلا لها إلا بالرجوع إلى التشريع الإسلامي وإلى القضاة المسلمين، الذي رأى الحاخامات الجدد لليهود أنه يعتبر خيانة للديانة اليهودية، فأقرت هذه المواد وجوب التقاضي أمام المحكمة الربية "بيت دين" وحرمة اختراق هذه القوانين أو اللجوء إلى محاكم أخرى والتي يعنون بها أكثر المحاكم الإسلامية. (يقول Norbert Bel-ange في كتابه Les juifs de Mostaganem أن هذه القوانين بقيت مخطوطة لمدة 320 عاما ولم يتم نشرها إلا في سنة 1738م على يد اليهودي المدعو " مائيرغراسكاسMeïrGrescas")(Bel-Ange, N.1990 :31).

ب.الرسبونسة(Responsa):

وهي الأجوبة التي كتبها الربيون ردا على تساؤلات اليهود على الأمور الحياتية والمستجدات الفقهية التي تعرض لهم في كل مرة فيتصدى الأحبار للإجابة عليها فتصبح بذلك تشريعا قائما بذاته، وربما تشبه هذه الإجابات ما يعرف في التشريع الإسلامي بفقه النوازل، وعلى الأغلب فقد نهج المشرعون اليهود نهج علماء المسلمين في العصر الوسيط، في تأليف كتب تختص بالنوازل كنوازل المعيار للونشريسي، ونوازل البرزلي، وفتاوى أو نوازل ابن رشد...

وأبرز من كتب هذه الإجابات من يهود الدولة الزيانية هو الربي ريباخ الذي ترك حوالي 417رسبونسة نشرت فيما بعد بالقسطنطينية بين عامي 1546- 1547م تحت عنوان Shéelot u Tses-hubot، وأعاد نشرها David FenkiatMunkaces بعنوان ShéelotTeshubot ha Ribasch).(Jewish, Ency.1901:6/ 632).

وكذا فقد سار خليفة ريباخ على رأس الطائفة اليهودية في مدينة الجزائر الربي راشباس على تقديم إجابات على كل ما يرد من تساؤلات تخص

الأمور الدينية والدنيوية لأفراد طائفته وقد جمعت كذلك على شكل رسبونسة وأبرزها:

- تاشباص (Taschbez):(اختصار للكلمتين (Teshuvot,Rachbaz) (Jewish, Ency.1901:6/ 305.)، وهي مجموعة فتاوى من ثلاثة أقسام، يتضمن القسم الأول 178 فصلا، والقسم الثاني 298 فصلا، والقسم الثالث فيه 327 فصلا، طبعت هذه الأقسام بأمستردام عام 1738م، أضيف إليها قسم رابع بعنوان Hut ha-Meshullash وتتضمن فتاوى بعض الحاخامات من أبناء راشباس وآخرين مثل "سال دوران الصغير" "سال سيرور" و"أبراهام بن طواح"(بوعمامة، ف. 2011: 174).

- مجموعة من المقالات عددها اثني عشر مقالا، كتبها سنتي 1420-1421م حول الزواج والميراث عند اليهود، وكان لهذه المجموعة تأثير كبير في القوانين الحاخامية المعمول بها، إذ تم جمعها وتوزيعها بين المجموعات اليهودية عام 1444م.

- مقالات حول الطلاق (خاصة الكتوباه: وهي ما يتضمنه عقد الزواج من شروط.والحاليصاه: وهي رفض أخ الزوج المتوفى الزواج بأرملة أخيه تطبيقا للتعاليم اليهودية التي تقول بوجوب ذلك عليه، ويدعى في إسرائيل "بيت مخلوع النعل" أو الحاليصاه(بوعمامة، ف. 2011: 121)). (Jewish, Ency.1901:6/ 306.)

وقد كانت لراشباس اتصالات مع يهود توات عبر وسطاء من بينهم "أبراهام هاكوهين شلال Abraham HakohenShalal" الذي كان تلميذا له بمدينة ميورقة ثم أصبح هو الوسيط بينه وبين يهود الصحراء وكان مقره بمرفأ "هنين" القريب من مدينة تلمسان، حيث كان يوصل له أسئلة الطائفة اليهودية ويعيد لهم الإجابات، وقد كان لهذه الرسبونسة أثر تاريخي كبير في إمدادنا بمعلومات قيمة عن حياة الطائفة اليهودية بإقليم توات(Oliel, J. 1994: 96.)

- رسبونسة الربي سلومو بن شمعون دوران بعنوان *Teshuvot ha-Rashbash* ونشرت عام 1742م بليفورن(Jewish, Ency.1901:6/ 307.)، وقد كتب بعضا منها في حياة أبيه وبموافقته.

- كتاب "هيشاخ شلومو *HeshekShelomo*"للربي سلومو بن شمعون، وهو عبارة عن شرح للأمثال، وقد نشر الكتاب سنة 1623م بمدينة البندقية (Allouche et Laloum, 1978 : 220).

- أجوبة الربي "إفرايمأنقاوة" حول الانتقادات الموجهة من طرف المسلمين لفلسفة موسى بن ميمون وقد ضمنها في كتابه " *Sha'arKebodAdonai*" ومعناه "المدخل إلى المجد الإلهي" والتي كتبها لابنه إسرائيل، ويوجد مخطوط من هذا العمل في مكتبة بودلين بأكسفورد(Jewish, Ency.1901:6/ 127).

ج.شروح التوراة والتلمود:

ألف علماء اليهود خلال العهد الزياني شروحا للتوراة والتلمود لتسهيل معرفتها وفهمها لأفراد طائفتهم ومن بينها:

- تعليق حول التوراة وآخر حول التلمود بعنوان *Ketouboth*للريباخ، كما اختصر النظرية اللاهوتية العقائدية لابن ميمون القائمة على 13 مبدأ عقائديا، ثم اختصرها راشباس إلى ثلاثة مبادئ هي: وجود الله، والتنزيل والثواب، وهي أفكار مقتبسة من أفكار ابن رشد. (بوعمامة، ف. 2011:169 -170)

- فتاوى حول تلمود "نيداريمNidarim" ورسالة حول القوانين الدينية بعنوان "*Zohar-ha-Rakiah*" نشرت بالقسطنطينية عام 1515م، وقد ألفها راشباس عام 1417م.

- ردود راشباس على "يوشع لوركي Joshua Lorki" المدعو(Geronimo de Santa Fé) في كتابه المسمى "*MilhemetMitzvah*" الذي ألفه سنة 1438م، وهو عبارة عن شرح لعقائد التلمود ودحض لشكوك "يوشع" حوله، وتبيين أن التلمود هو أساس التشريع اليهودي(Jewish, Ency.1901:6/ 306).

- كتاب "ياخينأوبعاز*Yakhin u Bouaz*" من تأليف حفدة راشباس حيث ألف قسمه الأول شمعون بن سلومون بن شمعون دوران والقسم الثاني ألفه أخوه سماح في النصف الثاني من القرن السادس عشر ميلادي.

- شرح تلمود نيداريم ليوسف ابن مينير بعنوان "شيتا Shitta" غير أن هذا الكتاب يعد في حكم المفقود، ولم يرد ذكره إلا في بعض المؤلفات(Cahen,C. 1867:58).

- كتاب "Abrekh" فيه شروح للتوراة والتلمود ويعد من الشروحات الكلاسيكية اليهودية، للربي يوسف الأشقر، كما له كتاب آخر بعنوان "*Edout-bi Yossef*" أي شهادة يوسف وهو حول فرائض الذبح وسننه، وآخر هو "*poratyaseph* ثمرة يوسف" حول الماسورا أي مدرسة التفاسير للكتاب المقدس، وكتاب "*Derekh es haim* طريق شجرة الحياة" وهو شروح للقوانين الدينية، وكتاب "*SeferToppouah* كتاب شجرة التفاح" وبه إضافات أو اجتهادات لشرح بعض النصوص الغامضة بالكتاب المقدس والتلمود والزوهار، وكل هذه المؤلفات وأخرى هي عبارة عن مخطوطات فقط كانت ملكا لشخص من مواليد مدينة تلمسان يدعى "الياسين كرمولي Eliacin Karmoly" حوالي عام 1855م، لهذا لم تطبع ولم تنشر(بوعمامة، ف. 2011:178- 179).

- كتاب "بيت يوسف Beth Josef " وهو عمل جامع للقوانين الشرعية اليهودية ألفه "يوسف إفرايمقارو Joseph Ephraïm Caro" الذي مكث مدة طويلة في الجزائر، ولم يكمل عمله هذا إلا في مدينة صفد الفلسطينية عام 1540م، وكذا كتابه "شولحانعاروخ *ChoulhanAroukh*" أي المائدة المنضودة، والذي يتضمن مجمل التقاليد السفاردية، وأعلامها الروحيين والثقافيين(سعد اللّه، ف.2005 :121.)، ويقول عليه الكاتب "فيكتور مالكه":"أنه منذ صدور "شولحانعاروخ" ليوسف قارو، لم يعد يهود شمال إفريقيا، مصر، فلسطين، تركيا واليمن، يحتكمون سوى لقرارات يوسف السفاردي في كل ما يتعلق بحياتهم اليومية(Malka,V. 1991 : 4- 5).

- كتاب "*Messiahyellemim*" لمؤلفه "يهودا خلاص Juda Kallac"، والذي علق فيه على تفسير وشرح الفقيه اليهودي الفرنسي "راشي Rachi" للكتاب المقدس، وله كتاب ثان بعنوان "*SeferHamoussar*".(سعد اللّه، ف.2005 :119.)

- وكتب علماء وربيون يهود عدة كتب للشروح والعقائد والتفاسير منهم "الربي يوشع هاليفي بن يوسف هاليفي-R.Yesha'yaha-Levib.Josephha-Levi" صاحب أشهر وأحسن المؤلفات المنهجية لدراسة التلمود وهو كتاب "حاليخوت علام *Halikhot 'Olam*"والذي ألفه بعد سنة 1467م، والذي يقول في مقدمته أنه قضى طفولته في مدينة تلمسان وتربى بها وتعلم، ثم

هاجر مضطرا إلى مدينة طليطلة فرارا بنفسه من الخطر - حسب قوله- (Hirschberg, J. 1978:I / 388.).

2- الأدب:

برع كثير من اليهود في الجانب الأدبي، لكن تأثرهم الكبير كان بالأدباء المسلمين ، وحتى دراساتهم كانت باللغة العربية خاصة مع ظهور إجبارية التعليم بالعربية منذ العهود الأولى للدولة الأموية في الأندلس، ووصل الأمر ببعض الأدباء اليهود إلى نصح المتعلمين اليهود بتعلم اللغة العربية وإتقانها ومعرفة قواعدها، حيث يقول "دوناش بن لبراطهاليفي" (وهو أحد أفراد عائلة هاجرت إلى مراكش من بغداد، وقد ولد في فاس سنة (308هـ/920م)، وتلقى فيها تعليمه، ثم أُرسل إلى العراق حيث تعلم على يدي سعديا الفيومي، ودرس اللغة العربية والأدب العربي دراسة مكّنته من معرفة فنونه، وعاد إلى مراكش، وعندما سمع بالدعم الذي يقُدَّمه حسداي بن شبروط للعلماء اليهود سافر إلى قرطبة، وسرعان ما لمع اسمه بين المثقفين اليهود في قرطبة، حيث كان يكتب الشعر باللَّغةِ العبرية على بحور الشعر العربي، وكان رائد هذا التطوير في الشعر العبري، (انظر بالنثيا،آ. 1955: 489.) في بيت شعري بالعبرية وترجمته هي:

فلتكن الكتب المقدسة جنتك ولتكن الكتب العربية فردوسك (بحر،ع. 1970: 27.)

واستعمل أدباء اليهود اللغة العربية وقواعدها لفهم لغتهم العبرانية، إذ يقول الشاعر اليهودي الأندلسي موسى بن عزرا الذي عاش في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي: "ولما افتتح العرب جزيرة الأندلس تفهمت جاليتنا بها بعد مدة أغراضهم، ولقنت بعد لأيٍ لسانهم، وبرعت في لغتهم، وتفطنت لدقة مراميهم، وتمرنت في حقيقة تصاريفهم، وأشرفت على ضروب أشعارهم، حتى كشف الله لهم من سر اللغة العبرانية ونحوها، واللين والإقلاب والحركة والسكون والبدل والإدغام وغير ذلك من الوجوه النحوية، مما قام عليه بُرهان الحق، وعضّده سلطان الصدق، على يدي أبي زكريا يحيى بن داود حيوج (هو أبو زكريا بن داود المشهور بيهودا بن حيوج، ولد في مدينة فاس سنة (360هـ/970م)، ثم انتقل إلى قرطبة حيث عاش وتلقى تعليمه فيها. وهو من تلاميذ مناحيم بن ساروق وقد نال الشهرة في نهاية القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ، وكان له تلاميذ كثر،

من بينهم إسماعيل بن النغريلة ومروان بن جناح. وكان حيوج مشهوراً عند النحاة العبريين المتأخرين بأنه مؤسس الدراسات العلمية للنحو العبري، (انظر Ashtor,E. 1984:1/391)". (كواتي، م. 2000: 163. هنداوي، إ. 1968: 12).

وإذا ما انتقلنا إلى بلاد المغرب في العصر الزياني فإننا نلحظ ندرة الإنتاج الأدبي لليهود فيها، وهذا راجع بالدرجة الأولى إلى اهتمام علماء اليهود وأحبارهم بالتآليف الدينية محاولة منهم لترشيد أفراد طائفتهم بعدما ما لاحظوه من قلة اهتمامهم وعدم تمسكهم بتعاليم ديانتهم، وتوجههم في الغالب إلى الاحتكام لدى المشرع الإسلامي، والسبب الثاني أن كثيرا من مؤلفات اليهود في ذلك الوقت أتى عليها الضياع والإهمال، ولم يصل منها إلا القليل، نظرا لما شهدته بلاد المغرب الإسلامي من تقلبات، وثورات أتت في كثير من الأحيان على التراث الأدبي، وكذا تقلب اليهود بين الغالبين، مما جعل تراثهم عرضة للتخريب والضياع، غير أن بعض المصادر تعطينا شذرات مما كتبه اليهود في الجانب الأدبي، ومما وصلتنا معلومات عنه نذكر:

- كتاب "*Refouat ha-Nefesh* علاج الروح" حول الأخلاق والآداب المعنوية والعملية للربي يوسف الأشقر المعروف بالركيز، كما له ديوان شعر حول الإله والعفة وطهارة المواد الغذائية، وقصيدة مدح لسليمان بن شمعون دوران بعنوان "تيكونسوفيريم*TikkonSoferim*" طبعت بليفورن عام 1744م. (بوعمامة، ف. 2011:178).

-مجموعة أشعار مؤلفة من طرف راشباس طبعت ببرلين عام 1855م تحت عنوان "*PerushKezatPiyyutim*"(Jewish, Ency.1901:6/ 305.).

- قصائد شعرية بعنوان "*Omer-ha-Schickcha*" لأبراهام بن مائير زميرو "Abraham Ben MeïrZamero" الذي عاش في وهران وتلمسان في أواخر القرن 9ه/15م، (وهو من مهاجري الأندلس، أصوله من مدينة غرناطة التي طرد منها في الحملة التهجيرية للأندلسيين، وانتقل إلى مالقة سنة 1493م، ثم إلى وهران وتلمسان، وكان جاسوسا للإسبان بين مدينتي وهران وتلمسان، ثم انتقل بعد ذلك إلى المغرب الأقصى ليكون عونا استخباراتيا للبرتغال على الحكام والسكان، وعينه هؤلاء ليكون حاخاما مسؤولا عن اليهود بمدينة أزمور المغربية)(Hirschberg, J. 1978 :1/432-433) وألف قصيدته المشهورة باللغة العبرية والتي عنوانها "يا نفسي إلى متى ستبقين

مجنونـة؟" (*My soul, how long wiltthoubefoolis ?*) (سـعد الله، ف.2005 :302.).

- مجموعة رسائل للربي سلومون بن شمعون دوران، خاصة تلك التي كان يوجهها لـ"ناثان نجار Nathan Najjar" وهي عبارة عن رسائل خطابية تتميز ببلاغة كبيرة، وذلك باستعمال عبارات وأساليب ولغة مستمدة من التلمود، ويعتبر الربي سلومون هو واضع هذا النوع من الأدبيات الذي عرف باسم "المليزاه*Melizah*"(.Jewish, Ency.1901:6/ 306).

- كتاب "أبراهام غابسونAbraham Gabison" الذي يعلق فيه على أمثال النبي سليمان- عليه السلام- والمعنون بـ"عوميرهاشيخا *Omer Hashikha*"، والذي ألفه في مدينة الجزائر في القرن العاشر الهجري، السادس عشر ميلادي.

ولا شك أن اليهود قد تأثروا كما تأثر العرب بالشعر ونهلوا من معينه وأصبحوا ينظمونه بطريقة فطرية واستعانوا بالمفردات العربية والأوزان الشعرية لتأليف أشعارهم العبرانية، وأصبح الشعر العبري جزءا من الثقافة الأندلسية وله تأثير كبير على الطائفة والثقافة اليهودية سواء داخل الأندلس أو خارجها، حتى قال قائلهم:"لقد ظل الشعر العبري الأندلسي لفترة طويلة يباشر سلطانا كبيرا على الثقافة اليهودية، وعلى هواة الشعر "بَيّوط"("بيوط" أو "بيوت" وتكتب "Piyyut": هي أشعار دينية أندلسية الروح والنغم، تتلى داخل المعابد حسب النوبات الأندلسية التي وضعها الفنان المسلم "زرياب" في القرن الثالث هجري، التاسع ميلادي، ولعلها ما زالت تحتفظ بتلك المقاطع والنوبات التي ضاعت ولم يعد لها أي وجود في الموسيقى الأندلسية بالبلدان العربية التي ما زالت تمارسها، انظر (سعد الله، ف.2005 :209).)، وصمدت إبداعاته الكبرى لامتحان الزمن، ولا زالت قراءته أو الاستماع إلى بعض القطع المرتلة منه، تحدثان تأثيرا عميقا لم تستطع معايير التحليل ومناهج النقد الحديث تفسيره (Zafrani, H. .(2000 :184.

ودخل الشعر ميدان الدين فأصبح يعالج الموضوعات الشرعية وأضحت أبياته جزءا من الصلوات والابتهالات والأدعية، "وقد ذاع هذا الشعر بسرعة هائلة في أوساط الطوائف اليهودية حول البحر الأبيض المتوسط والبلدان الشرقية، حيث احتل بينها مكانة رفيعة وأصبحت قصائده الكلاسيكية

المشهورة جزءا من الشعائر، وفتحت لها البيع الأبواب على مصراعيها." (Zafrani, H. 2000 :184.).

ومن الأشعار التي ألفها اليهود خلال عهد الدولة العبد الوادية واشتهرت حتى غدت ابتهالات وأدعية وصلوات نذكر:

- مجموعة تراتيل للربي إفرايمأنقاوةEphraimEnakaoua وهي مجموعة أدعية أصبحت ترتل بمعبد تلمسان، بالإضافة إلى تأليفه لقصائد شعرية أخرى نظمها لصديقه شمعون دوران بمناسبة انتهاء راشباس من تأليف كتابه *IabinSchemouah*.

- قصائد دينية لـ "علال بن صيدون أو سعدون Allal ben sidoun"، وأصبحت ترتل هذه القصائد بمعبد تلمسان.(يوجد مخطوط أدعية لإفرايمأنقاوة بمكتبة بودلين بأوكسفورد تحت رقم: 939.2:1258.2 Cat-Bodl-Hebr-M.ss.nos أنظر بوعمامة، ف. 2011: 176.)

- قصائد بالعبرية ليعقوب غابسونJacob Gabison"

- كتاب نظم الأشعار الدينية للكاتب "يهوذا خلاص" وهو كتاب ما يزال محفوظا كمخطوط إلى اليوم (سعد الله، ف.2005 :203).

- كما نظم بعض أحبار مدينة وهران قصيدة رثائية تخليدا لذكرى اليهود الذين نكبهم الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي سنة 1492م في حملته المشهورة على يهود توات، وأصبحت هذه القصيدة المكتوبة بعد خمسة عشر سنة من الحادثة، تتلى في الصلوات وفي البيع حوالي سنوات 1507- 1509م، أسى على اليهود الذين قتلوا من طرف الشيخ وأهل المنطقة، وحزنا على البيع التي دُنست –حسب وجهة نظرهم- ، وقد جاء في هذه القصيدة بعد ترجمتها:

شيء آخر غير مقبول: الظالم المعروف،

المغيلي، قاتل أهل توات وقورارة

والذي دنس البيعة

عمل مشين ! أوه، خبر سيء !

توات أبيدت، ظهر العدو بعدها في درعة

دمر الكنيسة، من أجل هذا لبست المسوح

قطعت قلبي، وفي ضميري أنا حزين لأجل إخواني

هذه القصيدة المكتوبة في الأصل بالعبرية، نشرها "شيرمانJ.Schirman" في كتابه "Qobetz 'al Yam"، وترجمها إلى اللغة الفرنسية "ميشال

قارالMichel Garel" حافظ المخطوطات العبرية بالمكتبة الوطنية بفرنسا و"ماشا إسحاق Macha Itzhak" أستاذ بالمدرسة الوطنية للغات الشرقية بفرنسا.، وأوردها "جاكوب عليل Jacob oliel" في كتابه، وقام الباحث هنا بترجمتها ، (انظر Oliel, J. 1994 :120-121).

وقد أنشأ اليهود في مدينة الجزائر قصائد تحمل معاني الحمد ، إثر هزيمة شارل الخامس وجيشه سنة 1541م وفشلهم في احتلال مدينة الجزائر ، وأنشدوا قصائد تذكر بالمقاومة ، منها مجموعة صلوات خاصة تتلى في الكنيس اليهودي للربابنة: موسى مشيش، موسى العقبي، أبراهام بن يعقوب تواح، وأبراهام بن سلمون سرفاتي (Garrot, H. 1898 : 39.).

وكما ظهرت النزعة إلى الغناء بين الأوساط المسلمة ، وجدت كذلك بين أوساط اليهود وظهر نوع من النزوع نحو التغني الذي أصبح رائجا ، إذ أصبحت الموسيقى والغناء –وهما من مكملات الشعر ، والعكس صحيح- من الأمور المفضلة ، خصوصا بعد ظهور جنس شعري جديد هو "المُوشّح"(الزعفراني،ح. 2000 :176/1- 177) ، ولا شك أن الاتجاهات التجديدية هذه التي انفتحت على الموسيقى والغناء الدنيويين اللذين شاعا عند المسلمين، ووجهت بردود أفعال حازمة من قبل الأوساط الدينية اليهودية المحافظة مثلما كان يحدث في الوسط الإسلامي من نقاشات حول جواز الغناء أو عدمه وشروطه وغيرها ، وهذا ما تؤكده فتاوى "الجاؤونحايHay".(سعد الله، ف. 2010: 37).

وأغلب الشعر الذي لقي رواجا شعبيا هو ذلك الذي أدمج في مجال الغناء والموسيقى، سواء كانا دينيين أو دنيويين، دنيويان كنوبات الغناء الأندلسي بموشحاتها وأزجالها والتي لا تزال حاضرة إلى اليوم فيما يعرف بالموسيقى والغناء الأندلسيين، ودينيان مثلما هو الحال عند المسلمين فيما يتعلق بالمدائح والذكر والسماع (سعد اللّه، ف. 2005: 117).

وإذا كان اليهود قد مارسوا نفس الغناء الأندلسي الدنيوي المتداول عند المسلمين، فإنهم تميزوا في الموسيقى والغناء الدينيين عن المحمديين(أي المسلمين)، بمواضيعهم الخاصة بشعائرهم والتي تم ظم الأشعار فيها من حيث أغراضها حسب تصنيفاتهم، ففيها النصوص المقدسة كتلاوة التوراة، وفيها الذِّكر، وفيها قصص الأنبياء اليهود وسيرهم مثل "قصة سيدنا يوب" (أي أيوب)، التي لا تزال كثيرة التداول في المغرب الأقصى مثلها مثل قصة "أبراهام والنمرود"(أي قصة سيدنا إبراهيم والنمرود)،

وقصة "يوسف الصديق"(سعد اللّه، ف. 2010: 48) ،هذه القصص وأخرى في الموروث الثقافي اليهودي المغربي لا تزال تتلى وتقص على مسامع الطوائف اليهودية والملاحظ على أغلبها أنها تأخذ بعض أجزائها وعناصرها من قصص القرآن الكريم(Zafrani, H. 2000 :212.).

وقد أخذت الطبوع الغنائية اليهودية عدة نماذج ومسميات بحسب حالاتها ومناسباتها وطرق آدائها ومنها: البقاشوطوالتحنوتوالأهابوت.

فالبقاشوط عي عبارة عن أناشيد روحية ومرثيات شائعة كثيرا في البيع، وحتى في البيوت العائلية، تتلى خلال أعياد "الشباط" الأسبوعية وأعياد أخرى، وكانت مطروقة كثيرا لدى الشعراء اليهود في الأندلس وشعراء المدرسة القبالية الصفدية(سعد اللّه، ف. 2005: 119).

وقد ثار العلماء الكبار لمدينة الجزائر في القرنين 14 و15م في تلك الفترة ضد أنغام إسماعيل المرددة داخل البيع، وحب الرب بعبارات الزنى، ومع ذلك اندمجت التراتيل في قواعد الغناء العبري، بما في ذلك استعمال "يالالان" إلى اليوم (سعد اللّه، ف. 2005: 187).

أما التّحِنوت: فهو شعر الابتهال، يتعرض إلى حالة الضيق والعوز وما تعيشه الطائفة اليهودية الكسيرة النفس، التي تطلب من اللّه أن يغفر خطاياها وأن يعيد صهيون ويخلص الشعب الإسرائيلي (سعد اللّه، ف. 2010: 49).

والأهابوت: هي أناشيد الحب (حب الرب لإسرائيل) واصطفاؤه لهم، كما تتناول فكرة الخلاص للشعب اليهودي(Zafrani, H. 2000 :212.).

وقد شاعت كثيرا أشعار البقاشوط في المغرب أكثر من غيره، لأنه كان يحتوي أكثر من أي جهة أخرى على أكبر عدد من قراء الزوهارالقباليين الذين كانوا منتظمين فيما يشبه الطرقية عند المسلمين، لقد كان القباليون هواة البقاشوط يلتقون قبل طلوع الفجر، على الساعة الثالثة صباحا ليتدارسوا الزوهار قبل انطلاقهم في إنشاد البقاشوط تحت إشراف "البيّيطان" أو ما يعادل "الباش قصّاد" في تقاليد المدح والذكر والسماع بشكل عام عند المسلمين. (سعد اللّه، ف. 2005: 117).

ويعتبر "البييطان" الناطق الرسمي باسم المجتمع اليهودي وهو رسوله المفوض أو ما يطلق عليه بالعبرية "Chalia'hTsibbour"، فهو يحكي آلامه ويعدد همومه، ويحامي في دعاواهم أمام الرب أثناء الصلوات والابتهالات، وله دوره الخاص في تسيير أعمال التعبد في البيعة، خاصة أيام أعياد السبت والأعياد الدينية وفي المناسبات العائلية، فيتغنى بالشعر أنغاما وألحانا، وهو

الذي يسلي الضيوف والمدعويين أثناء مآدب الزواج وحفلات الختان ومناسبات بلوغ الطفل السن الديني ومناسبة أول حلاقة شعر الطفل، وهو أيضا الذي ينظم قصائد الرثاء في عزيز فُقد وهو حاضر في حفلات نهاية الدراسات التلمودية وافتتاح البيع أو حمل لفائف التوراة(الزعفراني، ح. 2000 :203/1- 204).

ففي مدينة غرداية مثلا والتي لجأ إليها اليهود خاصة بعد حملة المغيلي على يهود توات سنة 1492م، نجد أنه طوال السنة ولمدة ساعة تقريبا وقبل فرض الصبح تنشد أناشيد البقاشوط، وهي عبارة عن أناشيد حزينة عن التهجير والعودة. وفي كل سبت تنشد أغاني بقاشوط معينة، وتعاد هكذا في كل سبت بنفس الترتيب وفي كل شهر (Allouche et Laloum, 1978 : 160).

وفي كل المجتمعات اليهودية تتلى تقريبا نفس الابتهالات والأناشيد الموحدة بين اليهود، غير أنه توجد في بعض المرات أناشيد خاصة بمجتمع دون آخر، مثال ذلك قصيدة الربي "أبراهام كوهين Abraham Kohen" والتي هي عبارة عن قصته وهو في طريقه إلى منطقة وادي ميزاب، إذ يقول فيها راويا هذه القصة:" عندما عبرت مكانا مقفرا، اعترضني فارس ليسلبني مالي، نظر إلي بغضب سائلا إياي بصوت كأنه الرعد:"من أي شعب أنت؟"، أجبته بقلب مرتجف:" أنا يهودي، لماذا تسأل؟ إذا ما أردتني بسوء فإن الرب سيكون بجانبي"، مثل كل مرة أبراهام يشكر الرب الذي ألهمه كلماته الشجاعة، وألقى الرهبة في قلب الإسماعيلي (يقصد به هنا المسلم)، وأضاف صلاة الشكر وأمل العودة إلى الأرض المقدسة." (Allouche et Laloum, 1978 : 160)

ولعل أبرز ما عبر عنه اليهود المهجرون في أغانيهم وأناشيدهم هو ذلك الحنين الجارف إلى الوطن الأم الأندلس، وساروا على نهج المسلمين في ذلك ورددوا معهم قصائد اللوعة والحنين وألم الفراق، والشوق إلى الديار واعتزازا بما ورثوه من تقاليد، فقد عاودوا إنشاد قصيدة لسان الدين بن الخطيب التي يقول فيها:

جادك الغيث إذا الغيث همى يا زمان الوصل في الأندلس
لم يكن وصلك إلا حلما في الكرى أو خلسة المختلس

أو ما قاله الشاعر الأندلسي ابن خفاجة:

يا أهل الأندلس لله دركم مـاء وظل وأنهـار وأشجـار

ما جنة الخلد إلا في دياركم ولو تخيرت هذي كنت أختار

التي ما تزال تردد إلى اليوم في الحفلات والأعراس وحتى في البيع (سعد الله، ف. 2005: 49).

هذا وقد بقيت اللغة العربية لقرون طويلة مصدر إلهام لليهود في كل العالم وبخاصة في منطقة شمال إفريقيا ولم يتردد أحبار اليهود وعلماؤهم في التنويه بقدرة اللغة العربية على إبراز مكنونات عقيدتهم وشرحها وتفسيرها وتعليمها كذلك، فعملوا على ترجمة النصوص التشريعية من العبرية إلى العربية، بل وحتى استعمالها في صلواتهم وابتهالاتهم وأدعيتهم في المعابد، وفي ذلك يقول "أندري شوراقي André Chouraqui" في كتابه "*La saga des Juifs en Afrique du Nord*": "فرضت اللغة العربية بصماتها العميقة في روح اليهود بشمال إفريقيا، والظاهرة الأكثر إثارة وبروزا في تعرب اليهود هو استعمالهم اللغة العربية في الأعياد والطقوس الدينية ولغايات صلواتية، حيث يقرأ الإنجيل في ترجماته العربية (مثل ترجمة سعدية غاؤون) في المعبد، ولا يتردد رجال الدين واللغويون وحتى الشعراء في استخدام العربية لتعليم حقائق عقيدة إسرائيل" (Chouraqui, A. 1972 :91.).

خاتمة:

شارك اليهود في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني في مختلف العلوم وساهموا في إثرائها، فانتعشت العلوم النقلية عندهم، وفي مقدمتها العلوم التي تتعلق بشرائعهم، وذلك عن طريق تفسير النصوص التوراتية والتلمودية وإيضاحها لأبناء ملتهم، وحتى وضع قوانين وتشريعات جديدة تنظم الحياة العامة للطائفة اليهودية بالبلاد الزيانية كما هو الحال بالنسبة لتقنوت مدينة الجزائر التي أشرف على وضعها كبار علمائهم وأحبارهم، وحرص الأحبار على تدوين فتاواهم وما يرد إليهم من نوازل أو حتى ما استنبطوه من أحكام وتشريعات، فألفت فيها عديد الكتب ويسمى هذا الصنف من التآليف بـ"الرسبونسة" أو "الأجوبة"، وفيما يتعلق بالأدب واللغة فقد انتهج الأدباء اليهود منهج اللغويين العرب وأخذوا منهم ونسجوا على منوالهم، واقتفوا آثارهم، واستلهموا من اللغة العربية، وأتقنوها، واستعملها كثير منهم في التأليف نثرا وشعرا، حتى اشتهرت مؤلفاتهم وذاع صيتها في العالم.

مصادر البحث:

1- بالنثيا، آنخلجنثالث. 1955م، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمه عن الإسبانية: حسين مؤنس، ط1.القاهرة: مكتبة النهضة.
2- بوعمامة، فاطمة.1432ه/2011م. اليهود في المغرب الإسلامي خلال القرنين السابع والثامن هجري، الموافق للرابع عشر والخامس عشر ميلاديين.الجزائر: مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع.
3- الزعفراني، حاييم. 2000م.يهود الأندلس والمغرب، ترجمة أحمد شحلان.الرباط: مرسم للنشر.
4- سعد الله، فوزي. 1430ه/2010م.يهود الجزائر في مجالس الغناء والطرب.الجزائر: دار قرطبة.
5- سعد الله، فوزي. 1426ه/2005م.يهود الجزائر- هؤلاء المجهولون- ، الجزء الأول، الجزائر: دار قرطبة.
6- بحر، عبد المجيد محمد. 1970م. اليهود في الأندلس. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، دار الكتاب العربي.
7- كواتي، مسعود. 2000م.اليهود في المغرب الإسلامي من الفتح إلى سقوط الموحدين، الجزائر: دار هومة للنشر.
8- المسيري، عبد الوهاب، 2006م.موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، المجلد الثاني، الجزء الأول، الطبعة الثالثة. القاهرة: دار الشروق.
9- هنداوي، إبراهيم موسى، 1963م. الأثر العربي في الفكر اليهودي، القاهرة: مكتبة الأنجلومصرية.
10- السعيد يوسف،سوزان، 2005م. المرأة في الشريعة اليهوديةحقوقها وواجباتها، الطبعة الأولى، القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.
11-Allouche, Jean Luc- et Laloum, Jean. 1978. Les Juifs d'Algérie, Images et textes, Paris : Editions du Scribe.
12-Ashtor, Eliyahu. 1984. The Jews of Moslem Spain,vol 3, Translated from the Hebrew by Aaron Klein and Jenny Machlowitz Klein, PHILADELPHIA: The Jewish Publication Society of America,.
13-Bel-Ange, Norbert . 1990, Les Juifs de Mostaganem, dans la collection « Histoire et perspectives méditerranéennes », Paris : Editions l'Harmattan.
14-Cahen, Claude. 1867. Histoire des Juifs de l'Afrique septentrionale, extrait du recueil des notices et mémoires de la société de la province de Constantine, Constantine.
15-Chouraqui, André. 1972. La saga des Juifs en Afrique du nord, Paris : Librairie Hachette.
16-Dubnov, Semon. 1968. History of The Jews From Roman Empire to The early Mediaval Period, Vol2, translated from the Russian by Moshe Spiegel, New York: Library of Congress.
17-Eben-Haezer. 1869. Le code rabbiniqe Traduction de M.Sautayra et M.Charleville, in Revue Africaine, OPU, Alger, vol 13, P 182-187.
18-Garrot, Henri. 1898.Les Juifs Algériens-Leurs origines-, Alger: Librairie Louis Relin.

19-Hirschberg, J.W. 1974. A History of the Jews in North Africa, Volume 1 -from the antiquity to the sixteenth century-, Leiden: E.J. Brill.
20- Jewish Encyclopedia. 1901.Juresalem :Keterpress, Vol 06.
21-Malka, Victor. 1991. Les Juifs Sépharades, série "que sais-je ?", Paris : P.U.F.
22-Oliel, Jacob. 1994. Les Juifs au Sahara, le Touat au Moyen Âge, Paris : CNRS Editions.
23-Zafrani, Haïm. 2000. Deux mille ans de vie Juive au Maroc, histoire et culture, religion et magie, Casablanca : EDDIF.